مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

مدارس الكتابة التاريخية الأوربية الحديثة
وقفة مع الرواد المؤسسين

عبد الرحيم الوسعيدي
طالب باحث في سلك الدكتوراه
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّص

يتناول هذ المقال التطور الذي شهدته الهيستوغرافيا التاريخية في أوربا خلال القرن التاسع عشر، وتأسيس مدارس جديدة على مستوى الكتابة التاريخية، وبخاصة في ألمانيا وفرنسا حيث عمت حركة واسعة انتشرت في مختلف الجامعات الأوربية. فبفضل "ليوبولد فون رانكة" ونضاله من أجل "استقلال" التاريخ عن التصور الفلسفي واللاهوتي. أصبح التاريخ علم قائم لذاته؛ واستجابة للتصور الجديد الذي دافع عنه رانكة ومناصريه من المؤرخين الشباب وخاصة في فرنسا. انتظم التاريخ مع تأسيس المدرسة الوضعانية التي أطرت جميع المعارف الأوربية، كعلم من العلوم الإنسانية إلى مادة وضعانية تستند إلى الالتصاق بالوثيقة ونقدها. الموجة ستعرف تطورًا جديدًا خلال القرن العشرين مع تأسيس مدرسة الحوليات سنة ١٩٢٩. إذ تجاوزت المدرسة الجديدة باشتغالها المتعدد مركزية الوثيقة التاريخية التقليدية. حيث اعتبرت الوثيقة جزء في بناء الواقعة التاريخية وليس الكل، لذا فتحت النقاش مع مختلف المواضيع والتخصصات الأخرى إلى ما بات يعرف بـ الأنثربولوجية التاريخية. عرفت الحوليات ثلاث أجيال رئيسية، جيل المؤسسين مارك بلوك ولوسيان فيفر، وجيل فرناند بروديل، وجيل ثالث يتزعمه جاك لوغوف الذي نادى إلى مراجعة التحقيب التاريخي. في هذا المقال البحثي سنقف عند أهم الآباء المؤسسين للمدارس التاريخية الأوربية الحديثة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٦ أبريل ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٩ مايو ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الهيستوغرافيا؛ الكتابة التاريخية؛ المدرسة الوضعية؛ مدرسة الحوليات؛ التحقيب؛ المدارس التاريخية

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/kan.2024.374194

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرحيم الوسعيدي. "مدارس الكتابة التاريخية الأوربية الحديثة: وقفة مع الرواد المؤسسين".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١١٩ – ١٢٨.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: abderrahim261116@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَة

استوجب التقدم الحاصل في أوربا ما بعد عصر النهضة الأوربية، تحولات كبيرة في المجالات العلمية والثقافية، والفنية، والدينية، والأدبية. فخلال بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ناضل الألماني "ليوبولد فون رانكه" من أجل إخراج التاريخ من قبضة اللاهوت الديني ومن قبضة الفلسفة، ليصير إلى مادة مستقلة لذاتها ومتخصصة بموضوعها. ولم يقف رانكة عند هذا الحد، بل دخل في جدل حاد مع المدرسة السوسيولوجية، حيث أضفى صفة العلمية على التاريخ، عكس السوسيولوجين الذين ربطوه بالتفسير لكي يصير علما. لقي دفاع رانكة هذا عن التاريخ، ترحيبًا واسعًا من لدن الباحثين الشغوفين بالبحث في التاريخ، وبخاصةً في فرنسا مع المؤرخين الشباب، تشارل لانجلوا وتشارل سينيوبوس الذين وضعوا الأسس الأولى لتأسيس أولى المدارس التاريخية المنهجية الحديثة في أوربا، باسم "المدرسة الوضعانية"، وكان من أهم مبادئها مركزية الوثيقة في بناء المعرفة التاريخية.

وخلال بدايات القرن العشرين وبفعل الاحتكاك مع علم الاجتماع تجددت المعرفة التاريخية، وانبثق جيل جديد من المؤرخين من حيث الرؤية والمنهج والأسلوب، تأسست على إثره مدرسة جديدة في فرنسا باسم "مدرسة الحوليات"، ودعت هذه المدرسة إلى تجاوز النظرة الأحادية للوثيقة والتخصص الضيق، وبخاصة مع آبائها المؤسسين، مارك بلوك ولوسيان فيفر. صاحب فكر مدرسة الحوليات طريقة جديدة، نادت من خلالها بالانفتاح على مختلف الحقول المعرفية الأخرى، وإخراج التاريخ من دائرة الانحباس للوثيقة إلى كتابة تاريخية شاملة، واعتبرت أن الوثيقة جزء في كتابة التاريخ وليس الكل كما دأبت عليها الوضعانية من قبل.

عرفت الحوليات الفرنسية ثلاثة أجيال، جيل المؤسسين، وجيل المخضرمين، وجيل ثالث الذي كان يتزعمه جاك لوغوف، كما نبين في هذا المقال. كانت هذه جملة من التحولات التي برزت في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية في أوربا، وصلت من خلالها بناء المعرفة التاريخية مستويات جد متطورة منهجيًا وابستمولوجيا. أشار الأستاذ محمد حبيدة في كتابه "كتابة التاريخ قراءات وتأويلات"، أن هذا التراكم المعرفي الذي حصل منذ القرن الثامن عشر من ناحية البناء وتوليد الأفكار والمعاني وتجدد الخطاب والنظرة الواقعية للأحداث التاريخية وتأويلها وتفسيرها وإعادة تركيبها وفق قراءات منهجية ملائمة للتغيرات التي حدثت في أوربا، كان من أجل تجاوز نمط الكتابة التاريخية الموروثة عن العهد القديم والعصور الوسطى[١]. ومع الحوليات اتسعت دائرة البحث التاريخي من البحث في الأحداث إلى البحث في تاريخ البنيات. وهذا التحول الطارئ في بنية الأبحاث مكّن من ظهور أبحاث تاريخية جديدة شملت كل الميادين الإنسانية والاجتماعية.

أولاً: المدرسة الألمانية (تأسيس لكتابة تاريخية منهجية حديثة)

شهد القرن التاسع عشر تقدما غير مسبوق على مستوى انفصال وتفكك العلوم عن بعضها البعض وبحثها عن أسباب التخصص وتأكيد الذات. ومن مظاهر هذا التقدم، يشير وجيه كوثراني، إلى قواعد أساسية من أهمها؛ مراجعة النظريات السائدة وأنظمة الفهم القديم الموروثة أحيانًا عن المنظومة الإغريقية بالاستناد إلى أدوات قياس جديدة تجمع بين البحث الميداني والتجريب المخبري. وإلى الانطلاق من التراكمات المعرفية الموجودة والاشتغال عليها وتطويرها. ثم إلى بروز علماء كبار في ميدان اشتغالهم[٢]. في هذا السياق، انخرط التاريخ في الدينامية المعرفية في أوربا خلال القرن التاسع عشر وأراد أن يصير علما؛ واجتهد المؤرخون في أن تكون مادة التاريخ مادة علمية، وخاصة مع الألماني البروتستانتي المذهب، (Leopold von Ranke) ليوبولد فون رانكة ١٧٩٥-١٨٨٦[٣]؛ فهو الذي وقف في وجه التصور الفلسفي وناضل إلى أن يتحول التاريخ إلى مادة علمية، فهو دعا إلى أن من اللازم أن يكون للتاريخ قواعد والموضوع؛ أي ضرورة اللجوء والاعتماد على الأرشيف، والموضوع الأساسي هو الحدث. ورأى أنه من الضروري أن تحصل عمليه التحصين المعرفة التاريخية، أي ضرورة الوثائق[٤]. كانت هذه المسألة في غاية الصعوبة بالنسبة للأوربيين، أي أنه ينبغي على المؤرخين الأوربيين الباحثين

في التاريخ إتقان اللغة الكلاسيكية (اللغة اللاتينية واللغة الإغريقية)؛ وطريقة فك الخطوط التي تكتب بها اللاتينية القديمة، وهكذا أراد رانكة، وضع حاجز أمام غير المتخصصين في ميدان التاريخ[٥].

رانكة كان يؤمن بعملية بناء وفية للتاريخ، فهو يركز على مجموعة الثوابت الأساسية لإمكانية هذا البناء، من أهمها: التحقق من الوثائق وتحليلها ونقدها؛ التحقق من الأحداث وعرضها بطريقة كرونولوجية. اجتناب الحكم على الماضي واقتصار على وصف الواقعة التاريخية كما هي. ثم نفي العلاقة بين الذات العارفة (المؤرخ) وموضوع المعرفة، أي الواقعة التاريخية. وأخيرًا التاريخ موجود لذاته موضوعيا وعلى المؤرخ أن يفهمه فهما موضوعيا وحياديًا من دون اصدار احكام أو استخلاص عبر[٦]. هذه القواعد التي اعتمد عليها رانكة ستنتشر في معظم أوربا ولاسيما فرنسا ثم إنجلترا وإلى خارج أوربا اليابان والولايات المتحدة الأمريكية. ثمة خاصية في أوربا هو أن الأوربيين كانوا يتوفرون على الأرشيف[٧]. فحينما نادى الوضعانيون الاستناد إلى الوثائق المكتوبة، كانت هذه الوثائق موجودة ومصنفة وموضوعة رهن إشارة الباحثين، فعندما ركزت الوضعانية على الوثائق، كانت من الأمر البديهي على الاعتماد على الحدث، بالنسبة لها الحدث هو التاريخ.

حدث في أوربا أن وفرت الدولة الأرشيف، فكتب الوضعانيون تاريخ الدولة والتاريخ السياسي للدولة انطلاقا من نفس الخاصية وهو الأرشيف الذي ركز على الحدث وبالتالي فهناك علاقة جدلية بين الأرشيف والدولة في أوربا[٨]. الدولة وفرت الأرشيف للمؤرخين والمؤرخون كتبوا تاريخ الدولة على اعتبارها رافعة التاريخ، كانت مسألة أساسية. أعقب هذه المرحلة ظهور مجلات تاريخية متخصصة أضافت صبغة نوعية للكتابة التاريخية الجديدة في أوربا. خاصة "المجلة التاريخية"، التي تأسست سنة ١٨٥٩ على يد المؤرخ هاينريش فون سيبال (Heinrich von Sybel ١٨١٧-١٨٩٥)، تلميذ رانكة وأستاذ في جامعة ميونيخ. الأوربيون صاروا على نفس الاتجاه وظهرت مجالات أخرى بعد المجلة التاريخية بنفس الاسم. في فرنسا أنشأ "غبريال مونو (Gabriel Monod ١٨٤٤-١٩١٢) بنفس الاسم سنة ١٨٧٦. حدث نفس الشيء في إيطاليا سنة ١٨٨٤؛ وفي إنجلترا سنة ١٨٨٦؛ وفي الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٨٩٥ بنفس الاسم تقريبا "مجلة الجمعية التاريخية الأمريكية". والتجربة انتقلت إلى اليابان عن طريق تلامذة رانكة. واليابانيون ركزوا كثيرا على الألمان في جميع المجالات، وركزوا على مبدأ ضرورة الوثائق لكتابة التاريخ، وفي نهاية القرن التاسع عشر، أول خطوة قاموا بها حينما نشأت جامعة طوكيو ١٨٨٩، حيث أسس قسم التاريخ مجلة على الطريقة الألمانية "المجلة التاريخية"[٩]. في فرنسا منح المؤرخون نفسًا جديدًا للكتابة التاريخية ابتداءً من سنة ١٨٧٦ نشأة المجلة التاريخية. في سنة ١٨٩٨ تم صدور كتاب في غاية الأهمية لمؤرخين وضعانيين فرنسيين، بعنوان، " مدخل إلى الدراسات التاريخية"، حيث طرح شارل لانجلوا (Charles – Victor Langlois) وشارل وسينيوبوس (Charles – Seignobos)[١٠]، قواعد البحث التاريخي على الطريقة التي وضعها رانكة، مثل مسألة التحقق من الوثائق والتحقق من الأحداث الموضوعية[١١].

ثانيًا: الوضعانية (الأرشيف مصدر التأريخ)

مع الآباء المؤسسين، تشارل لانجلوا وتشارل سينيوبوس، عرفت الكتابة التاريخية تطورًا كبيرًا من حيث التركيز على الحدث التاريخي في بعده السياسي؛ يذكر سينيوبوس ولانجلوا، "أن التاريخ يكتب انطلاقا من الأرشيف. الأرشيف هو الأثر الذي يتركه فعل الإنسان في الماضي وتفكيره. لكن قليلا ما يترك هذا الفعل هذا التفكير أثرًا مرئيًا أو دائمًا"[١٢]. يضيف لانجلوا وسينيوبوس، "يكفي أن تحدث كارثة ما ليندثر كل شيء"[١٣]، لذلك فإن كل فعل أو فكر لم يخلف أثرًا مباشرًا أو غير مباشر يَضيع بالنسبة للتاريخ، وكأنه لم يوجد أبدًا. فبدون وثائق تبقى حقب عريضة من الماضي مجهولة. لا شيء يعوض الوثائق. لا تاريخ بدون وثاق وأرشيف[١٤]. وهذا ما يرجع بالخصوص بول ريكور إلى القول، "المؤرخ هو في الأصل محلل للوثائق التاريخية"[١٥]. من هذه الزاوية يظهر التاريخ ككتابة كإعادة بناء لقراءة الماضي وباستعادة لمقولات ومفاهيم وإعادة صياغة هذه المقولات والمفاهيم[١٦]. وفي هذا

السياق نفسه، الذي حصل بالنسبة للكتابة التاريخية التي اشتغل عليها مؤرخو الوضعانية، هو التركيز على الحدث، أي انحباس خاص للوثيقة وصار المؤرخون يصفون ولا يفسرون، وهي إشكالية أساسية خلقت نقاشا كبيرا بين المؤرخين الوضعانيين وعلماء الاجتماع؛ وهي الطفرة الابستمولوجية التي تفسر التطور الذي حصل في الكتابة التاريخية فيما بعد[١٧]. فلما كانت الوثيقة ضرورية لكل عمل تاريخي، في نفس الوقت كانت سجن بالنسبة للمؤرخ، الشيء الذي يفسر انحباس عدد من الأعمال التاريخية. كون أن العديد من الباحثين ينحصرون في هذه الوثيقة ولا يستطيعون التخلص من هذه الوثيقة، وبالتالي يقولون ما تقوله الوثيقة فعمل المؤرخ يقضي بخلق نوع من التوازن بين ما تقوله الوثيقة وما يقتضيه الفهم من تفسير وتأويل، فمسألة التفسير والتأويل لا تتأتى إلا بالاحتكاك بالعلوم الاجتماعية المجاورة. وبالتالي لا يمكن التاريخ بدون وثيقة، ولكن كلما كثرت الوثائق إلا وحاصرت تفكير المؤرخ وسجنه في قوالب ضيقة. حيث تطغى هذه الوثائق على عمل الباحث ولا يستطيع التخلص من هذه الوثائق لكي يقدم بحثًا نوعيًا. فتطور المعرفة التاريخية لا يرتبط بوجود كميات الوثائق، بل بدرجة الاحتكاك بالعلوم الاجتماعية المجاورة لأن المسألة مسألة مفاهيم بدرجة أساسية فهذه المفاهيم هي التي تميز التاريخ عن الوثيقة. وتمكن المؤرخ من الحديث بلغة مغايرة عن لغة المؤرخ الإخباري عندما يتحدث عن البنية ونمط العيش والعقلية[١٨].

في نهاية القرن التاسع عشر حصل نقاش كبير بين المؤرخين وعلماء الاجتماع خاصة في فرنسا، ولاسيما بين زعيم المدرسة السوسيولوجية الفرنسية ايميل دوركهايم، الذي كان يقول التاريخ ليس علما. فالاجتهاد الذي حصل في القرن التاسع عشر منذ رانكة إلى غاية نهاية هذا القرن، كان يسعى إلى إضفاء العلمية على التاريخ. وبهذا الخصوص يقول دوركايهم، "لا يمكن للتاريخ أن يصير علما إلا إذا فسر، ولا يمكن للعلم أن يُفسر إلا إذا قارن؛ والحال أن التاريخ إذا قارن لن يختلف عن علم الاجتماع[١٩]. كلام دوركهايم، اثار نقاش حاد بين أوساط المؤرخين في فرنسا، حيث حدث أن ردّ عليه "فوستال دوكولانج"، بالقول "السوسيولوجيا الحقيقية هي التاريخ". ومرة أخرى رد عليه دوركايهم، "لا جدال في ذلك شريطة أن يُكْتَب التاريخ بطريقة سوسيولوجية"[٢٠]. يقصد دوركايهم، بطريقة تفسيرية وتأويلية، الذي حدث أن المؤرخين الوضعانيين لم يكن بإمكانهم فتح هذه النافذة، نافذة التفسير ونافذة التأويل. غير أن الذي يمكن أن يحمل هذا المشعل هو مجموعة من مؤرخين الشباب، وهذه المرة ليس في باريس التي تمثل المركز، بل في استراسبورغ في الهامش، حيث ظهر مجموعة من المؤرخين الشباب وخاصة مارك بلوك ولوسيان فيفر، واستجابوا لهذا الاستفزاز الذي طرحه ايميل دوركايهم، واجتهدوا من أجل اخراج التاريخ من التخصص الضيق أي الاقتصار على مركزية الوثيقة والتأريخ بالحدث[٢١].

ثالثًا: الحوليات التاريخية (رؤية جديدة للتاريخ)

أنشأ مارك بلوك (Marc Bloch) ولوسيان فيفر (Lucien Febvre)، مجلة جديدة مجلة الحوليات ١٩٢٩. هؤلاء المؤرخين الشباب اللذان اشتغلا بتعاون مع مجموعة من الباحثين خارج تخصص التاريخ، حيث اشتغلوا مع الجغرافيين واشتغلوا مع علماء الاجتماع[٢٢]. إذ كان يتم عقد مرة في الأسبوع لقاء حبي بين مارك بلوك ولوسيان فيفر من جهة، وجغرافيين وعلماء الاجتماع يشتغلون من داخل مدرسة استراسبورغ من جهة أخرى، وكان هناك نقاش من أجل إخراج التاريخ من التخصص الضيق وفتحه على التفسير، إذ ركزوا على عدم الاقتصار على الوثائق، والانفتاح على أجناس مصدرية أخرى، كالآثار الواقفة، والنقود، والرواية الشفهية والصورة... وثانيا، الانفتاح على مفاهيم ومقولات ونتائج علم الاجتماع، وحتى الجغرافيا. ومسألة ثالثة، تعتبر بمثابة بيت القصيد. ألا وهي الانتقال من البحث في الأحداث إلى البحث في البنيات الاجتماعية والاقتصادية، هذا هو التحول الأساسي الذي دشنه الجيل الأول لمدرسة الحوليات ابتداءً من الثلاثينيات القرن العشرين.

أجيال متعاقبة. وإلى جانب بلوخ وفيفر ساهم ثلة من الباحثين المنتمين إلى الجيل الأول في تأطير تيار الحوليات ومن أهمهم: جورج لوفيفر (١٨٧٤-١٩٥٩)، الفلاحين في الشمال خلال الثورة الفرنسية، Les paysans du nord pendent la Révolution française، و هنري بير (١٨٦٣-١٩٥٤)، التركيب التاريخي وعلاقته مع التركيب العام، La Synthèse en histoire : Son rapport avec la synthèse générale، وفرانسوا سيميان (١٨٧٣-١٩٣٥)، منهجية التاريخ المطبقة على العلوم الاجتماعية، La méthode historique appliquée aux sciences sociales، وغابريال مونو (١٨٤٤-١٩١٢)، دراسات نقدية لمصادر تاريخ الميروفانجيين، Etudes critiques sur les sources de l'histoire mérovingienne، و كامي جوليان (١٨٥٩-١٩٣٣)، تاريخ مدينة بوردو حتى عام ١٨٩٥، Histoire de Bordeaux depuis jusqu'en 1895، وتاريخ بلاد الغال، Histoire de la Gaule، وكتب أيضا، نهر الراين الغالي والفرنسي، Le Rhin gaulois : Le Rhin frnçais. والباحث بول مانتو (١٨٧٧-١٩٥٦)، الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر،La révolution industrielle au 18è siècle، وبيار لاكوب (١٨٣٤-١٩١٩)، التاريخ بوصفه علمًا، De l'histoire considérée science، و وليام لانجر (١٨٩٦-١٩٧٧)، مؤرخ أمريكي له كتاب دبلوماسية الإمبريالية (١٨٩٠-١٩٠٢)، The Diplomancy of Imperialism، و جيمس هارفي روبنسون (١٨٦٣-١٩٣٦)، وهو أيضا مؤرخ أمريكي صدر له كتاب بعنوان، تاريخ جديد: أبحاث حول النظرية التاريخية الجديدة، The New History : Essays Illustrating the Modern Historical Outlook، سنة ١٩١٢. ولويس بيرينشتاين نامير (١٨٨٨-١٩٦٠)، مؤرخ إنجليزي، له كتاب بنية السياسية عند صعود جورج الثالث على العرش، The Structure of Politics at the Accession of George 3[٢٣].

والجيل الثاني، يتزعمه فرناند بروديل، الذي سطر بالفعل برنامجًا أو توجهًا مستقبليًا للتاريخ في علاقة بالعلوم الإنسانية الأخرى. وانطلاقًا من ذلك برزت أدوات ومفاهيم مثل "البنية" و "النموذج" وعلاقتهما بأزمنة التاريخ "الطويل المدى". ورغم الغزو البنيوي يقول ميشيل فُوفُيل تمكن برنامج فيرناند بروديل من النجاح إلى حد كبير لأن الباحثين انخرطوا فيه دون تنسيق أو اتفاق مسبق. ومما يفسر ذلك توجه البحث التاريخي نحو حقول معرفية أخرى وتغير المناهج والتقنيات. لقد اقتحم البحث التاريخي حقل التاريخ الاقتصادي المهتم بتزامن الأزمنة في الأنشطة الاقتصادية، وارتبط الأمر بتاريخ الأسعار نحو تاريخ الإنتاج والنمو[٢٤]. أما الجيل الثالث فيتزعمه جاك لوغوف (Jacques Le Goff)؛ جيل تاريخ العقليات والأنثروبولوجية التاريخية[٢٥]. بصفة عامة؛ ثمة أفكار أساسية يمكن أن نحتفظ بها منذ تأسيس الحوليات إلى الجيل الثالث في السبعينيات من القرن العشرين، وهي ثلاثة عناصر. العنصر الأول وهو السؤال أو بعبارة أخرى الإستشكال، أي استشكال القضايا المرتبط باستنطاق الوثائق بطريقة أخرى لأن الوثيقة قد تقول شيئا وقد تقول أشياء أخرى إذا أحسن المؤرخ استنطاقها لكي نستخرج منها ما لا يظهر للوهلة الأولى.

العنصر الثاني المقارنة وهي في غاية الأهمية، لا يمكن أن نفهم من دون المقارنة، وهو النهج الذي صارت عليه مدرسة الحوليات. كتب مارك بلوك مقالة ١٩٢٨ في هذا الاتجاه بعنوان "من أجل تاريخ مقارن للمجتمعات الأوربية". وطبق هذا النهج في كتابه "المجتمع الفيودالي" حينما قارن أوفقيا بين النظام الفيودالي في فرنسا وألمانيا وإنجلترا، وعموديًا بين الفيودالية الأوربية والفيودالية اليابانية. فقضية المقارنة مهمة جدًا للفهم. ففي كتاب المجتمع الفيودالي، مارك بلوك يتساءل في النهاية، هل عرفت المجتمعات غير الأوربية الفيودالية؟ فهو يقصد الفيودالية ولا يشير إلى الإقطاع حيث يعتبر الإقطاع جزء من النظام الفيودالي. في سنة ١٩٣٩ قال "المجتمع الذي يُظْهِرُ تشابها مع الفيودالية الأوربية هو المجتمع الياباني". هذه المقارنة هي إيحائية لفهم حتى المجتمعات العربية الإسلامية في تاريخها حينما كان يسود النظام الإقطاعي. يقول مارك بلوك، بأن النظام الفيودالي الذي عاشته أوربا يرتكز على شيئين أساسيين هما العمل والانضباط، لأن أوربا صنعها الأوربيون كمجال في العصر الوسيط عن طريق

العمل (الأقنان). لأن أوربا في الأصل من الناحية المجالية، كانت عبارة عن غابة والأوربيون بفضل العمل تمكنوا من كسب القرى ومن كسب المدن ومن كسب المراعي ومن كسب الطرقات على حساب اجتثاث الغابة.

وفي هذا الصدد ثمة كتاب لجاك لوغوف، بعنوان "هل ولدت أوربا في العصر الوسيط". التهيئة المحالية التي حدثت في أوربا حاليًا على مستوى القرى وعلى مستوى المدن والطرقات موروث عن المرحلة الوسيطية الفيودالية وكان ذلك بفضل العمل والانضباط، لأن المجتمع الفيودالي مجتمع يحكمه الفرسان، والأقنان كانوا منضبطين لما يقوله الفرسان، يعني العمل ثم العمل. في اليابان حدث نفس الشيء المجتمع الياباني تاريخيًا مجتمع مبني على العمل والانضباط، وأن هذا العمل والانضباط هما اللذان يفسران التحول الذي حصل في اليابان في القرن التاسع عشر. النافذة التي فتحها اليابانيون على الحداثة مع" تجربة الميجي" في أواسط القرن التاسع عشر. وهنا نرجع إلى ما طرحه ايميل دوركايهم حينما قال "التاريخ ليس علمًا، لأنه لا يفسر وإذا أراد أن يكون علمًا عليه أن يُقَارِن"، فنتيجة المقارنة هو توليد الأفكار. والمؤرخ بإمكانه أي يولد الأفكار وبإمكانه أن يتجاوز مرحلة الوصف وأن يبلغ مرحلة توليد الأفكار المرتبطة بهذا المنهج القائم على أساس المقارنة. العنصر الثالث هو التركيب الذي يركز عليها رواد الحوليات، بمعنى عوض الانحباس في بحوث ضيقة مجهرية منوغرافية مرتبطة بالقرى ومرتبطة بالمدن مرتبطة بقبائل[٢٦]. يقترح رواد الحوليات فتح التاريخ على التركيب، لأن التجربة الأوربية يتبين منها أن الباحثين في المرحلة الأولى ينجزون أبحاث منوغرافية. وفي مرحلة ثانية ينتقلون لإنجاز أبحاث تركيبية. وهذه المسألة نلاحظها في تجارب عدد من المؤرخين من بينهم "جورج دوبي" المنتمي إلى جيل المخضرم، ما بين الجيل الثاني والثالث، حيث اشتغل في البداية حول الفيودالية في منطقة مكُّونيا، وفي مرحلة ثانية اشتغل على الفيودالية في مجموع الأقطار الأوربية. العنصر الأخير هو التحقيب أو مراجعة التحقيب المعمول به لدى المؤرخين الأوربيين كما هو مقسم لمراحل معلومة، التاريخ القديم، التاريخ الوسيط، التاريخ الحديث والمعاصر، هذا التصور المألوف لدى الأوربيين[٢٧] في هذا الصدد سنقف مع جاك لوغوف، خاصة النقاش الذي فتحه لمراجعة التحقيب.

طبع تأثير الحوليات الفرنسية تاريخ جديد، إذ تمكنت من فتح آفاق جديدة أمام الباحثين، بمنهجية وأدوات أكثر شمولية وانفتاحًا على العلوم الاجتماعية الأخرى. وكان هدف مؤسسيها كسر جمود المدرسة الوثائقية التقليدية وقيودها، فانفتحت على حقول الاقتصاد وعلوم الاجتماع والأنثروبولوجيا والديمغرافيا، وأغرقت في تحليل المعطيات الكمية والإحصاءات بوصفها أدوات فعالة لتجسيد مشروعها التجديدي الذي أطلقه رائداها الأولان مارك بلوخ ولوسيان فيفر، والذي واصله ورسّخ دعائمه فيرناند بروديل، (١٩٠٢-١٩٨٥) وإرنيست لابروس (١٨٩٥-١٩٨٨)، وجاولا بعث نفس جديد فيه أقطاب "التاريخ الجديد"[٢٨]. مثل الجيل المخضرم للحوليات الفرنسية باحثين كثر، ومن أهم وجوه هذا الجيل ومساهماتهم البحثية: إرنيست لابروس، أزمة الاقتصاد الفرنسي في نهاية العهد القديم (الملكي) وبداية الثورة الفرنسية،
La crise de l'economie française à la fin de l'ancian régime et au début de la Révolution française , Paris : PUF,1944..

ولويس هالفان (١٨٨٠-١٩٥٠)، مدخل إلى التاريخ، Introduction à l'histoire, Paris : 1946، وألفونس دوبون (١٩٠٥-١٩٩٠)، خرافة الحروب الصليبية، Le Mythe de croisade ; Paris : Gallimard,1977.، و غابريال لوبرا (١٨٩١-١٩٧٠)، دراسات في علم الاجتماع الديني، Etudes de sociologie religieuse, Paris : PUF,155-1956، وجان ماركزيوسكي (١٩٠٨-١٩٩٠) مدخل إلى التاريخ الكمي، Introduction à l'histoire Quantitative , Genéve : 1956، و إرنست روبير كورتيوس (١٨٨٦-١٩٥٦)، الأدب الأوربي والعصر الوسيط اللاتيني، La Littérature européenne et le Moyen, Paris :PUF,1956، آندريه بيغانيول (١٨٨٣-١٩٦٨)، ما هو التاريخ؟، Qu'est-ce-que l'histoire ?، وفيليب آرييس (١٩١٤-١٩٨٤)، زمن التاريخ، Le temps de

l'Histoire, Paris :1954، وبيار دوسان جاكوب (١٩٠٦- ١٩٦٠)، الفلاحون في بورغنديا الشمالية في القرن الأخير للعهد القديم (الملكي)، Les paysans ge la Bourgogne du Nord au dernier siècle de l'Ancien Régime, Dijon : Impr. Bernigaud et Privat ; 1960.

وجان موفري (١٩٠١-١٩٧١)، الزراعة في أوربا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، L'agriculture en Europe aux 17 et 18 siécles, Florence : Sansoni, 1955. و بيار فيلار (١٩٠٦-٢٠٠٣)، تاريخ إسبانيا، Histoire de L'Espagne,Paris :1947 [٢٩].

رابعًا: في مراجعة التحقيب (وقفة مع جاك لوغوف)

بفضل إسهاماته الكثيرة وإنتاجه المتنوع، وتواصله مع فئات عريضة من الجمهور، وانفتاحه على التاريخ الأوربي، ومشاركته في إصدار مجلة الحوليات، وتأثيره القوي في مجموعة من الباحثين المرموقين الذين يمثلون الجيل الثالث من مؤرخي الجوليات الفرنسية، لقِّب جاك لوغوف بعملاق التاريخ[٣٠]. ومن مؤلفاته: تجار ومصرفيون في العصر الوسيط، Marchands et banquiers au Moyen Age, Paris 1957. المثقفون في العصر الوسيط، Les intellectuels au Moyen Age, Paris :1957. حضارة الغرب الأوربي في العصر الوسيط، La civilisation de l'Occident médiéval ; Paris :1964. من أجل عصر وسيط آخر، Pour un autre Moyen Age, Paris :1977. نشأة المطهر، Le Naissance du purgatoire, Paris : 1981. مخيال العصر والوسيط، L'Imaginaire médiéval, Paris :1985. البورصة والحياة، La Bourse et la Vie, Pris : 1986. أوربا محكية للشباب، L'Europe racontée aux jeunes, Paris : 1996.[٣١] وإلى جانب عملاق التاريخ، ثمة مؤرخين ينتمون إلى نفس الجيل، أي الجيل الثالث من الحوليات الفرنسية، نذكر منهم: بيار نورا (١٩٣١، البالغ من العمر إلى حدود كتابة هذه الأسطر ٩٣ سنة)، له مؤلف دراسة من أجل تاريخ معاصر، الصادر سنة ١٩٧٣، Pour une histoire contemporaine. وجورج دوبي (١٩١٩-١٩٩٦)، خلف دوبي إنتاجًا غزيرًا في التاريخ، من مؤلفاته: تاريخ فرنسا الريفية، القسم الأول: من الأصول إلى ١٣٤٠، : Histoire de la France rurale,Tome1 Des origines à 1340 (1976). كان له اسهام كبير في احياء الاهتمام بالتاريخ السياسي وتوجيه البحث التاريخي نحو دراسة العقليات والذهنيات في المجتمعات. والمؤرخ بول فاين (١٩٣٠-٢٠٢٢)، كانت له مساهمات كبيرة في فهم السلوك الاقتصادي وأثره على السياسة العامة. من أبرز مؤلفاته، كيف يُكتب التاريخ. محاولة بحث نقدي، Comment on écrit l'histoire, essai d'épistémologie, Paris : 1971. إيمانويل لوروا لادوري (١٩٢٩-٢٠٢٣)، يعتبر أبرز من نظر إلى التاريخ من الأسفل إلى الأعلى. من أهم مؤلفاته، مونتيو قرية أوكتانية (١٢٩٤-١٣٢٤)، Mountaillou, village occitan de 1294 à 1394 : Paris1975. بيار شونو (١٩٢٣-٢٠٠٩)، من أهم مؤلف له، التاريخ الكمي، التاريخ المجزأ، Histoire quantitative, histoire sérielle, Cahiers des annales 37, Paris : 1978. والمؤرخ فراسوا دوس (١٩٥٠، البالغ من العمر إلى حد كتابة هذا المقال البحثي ٧٤ سنة). من أهم اسهاماته التاريخية مؤلف التاريخ المفتت: من الحوليات إلى التاريخ الجديد: L'histoire en miettes. Des « Annales » à la « nouvelle histoire »(1987). من جملة ما تناوله في هذا المؤلَّف، هو التنبه لتوجه التاريخ كما تصورته مدرسة الحوليات؛ إلى التفتت وفقدان هويته بعد طغيان العلوم الاجتماعية عليه، بحيث تحول إلى تواريخ منشطرة[٣٢]. وبما أن جاك لوغوف عملاق التاريخ فإننا سنقف هنا قليلاً لنأخذ أهم النقط الأساسية التي أسهم بها فيما يخص مراجعة التحقيب التاريخي.

لقد عالج جاك لوغوف تصور التحقيب، من استمراريات وقطائع وأشكال فهم التاريخ، ويستعيد مفهوم العصر الوسيط الطويل من خلال مراجعة المفهوم المركزي لعصر النهضة، كما ظهر في القرن التاسع عشر[٣٣]. ركز لوغوف كثيرًا على مناقشة النقلة بين العصر الوسيط والحديث، بين القرون الوسطى والأزمنة الحديثة. نعلم أن الأزمنة الحديثة بدءًا بالقرن الرابع

عشر وانتشرت في عدد من المدن الأوربية في القرن الخامس عشر والسادس عشر. نجد الإصلاح الديني ونشأة مذهب جديد مذهب اللوثري البروتستانتية التي غيرت وجه أوربا، ونشأة الدولة القومية، والكشوفات الجغرافيا والآفاق الاقتصادية التي فتحت أمام الأوربيين تحولات كبيرة حصلت في القرن السادس عشر، ومع ذلك يرى جاك لوغوف، أن أوربا لم تلج العصر الحديث مع هذه التحولات التي ذكرناها. حجة جاك لوغوف في ذلك يقول: "بأن الأوربيين صنعوا شيئًا جديدًا بالعودة إلى الوراء"، لأن عصر النهضة ينادي بالعودة إلى العصر الاغريقي والروماني، الفلسفة اليونانية وللقانون الروماني وعظمة الدولة. والحال بالنسبة لجاك لوغوف، أن العصر الحديث مرتبط بفكرة التقدم[٣٤] وبالتشوف إلى المستقبل، بمعنى أن الأوربيين تحرروا من جاذبية الماضي وسحره. فالتحولات الكبرى بالنسبة لجاك لوغوف، لم تحصل في القرن السادس عشر، بل حصلت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

وكذلك كلمة الحداثة التي ظهرت في القرن الثامن عشر عصر الأنوار عند الفيلسوف جان جاك روسو فهو أول من استعمل كلمة حداثة. الثورة الصناعية التي غيرت الحياة المادية للإنسان على جميع المستويات. الثورات البورجوازية (الثورة الإنجليزية والثورة الفرنسية)، والمفاهيم الجديدة التي ظهرت؛ كالحرية، المساواة، حقوق الإنسان، المدنية، الديمقراطية...ثم فكر الأنوار الذي اتسع على حساب التفكير الديني وعلى حساب الكنيسة. بالنسبة لجاك لوغوف، هذه المؤشرات الأساسية التي تمكننا من الحديث عن نقلة الأوربيين من التاريخ الوسيط إلى التاريخ الحديث. "وقد تجسدت مظاهر التقدم والحداثة تجسيدًا ماديًا في القرن التاسع عشر: اتساع الحديد والزجاج، والقطارات والباخرات، والبنادق والمدافع، والمطّاط، والصورة الفوتوغرافية، والأدوية الصناعية، والألبسة المقدودة، والنظارات، والساعة الشخصية، وغيرها من المستحدثات، الناعمة والعنيفة، التي تجاوزت الحدود الأولربية لتتبناها مجتمعات أخرى، في أمريكا وآسيا وإفريقيا، في إطار عولمة ما فتئت تتمدّد لتُدخِل شعوب المعمور في العصر الحديث"[٣٥] لذلك فهو يتكلم عن القرون الوسطى الطويلة وبعبارة أخرى القرون الممتدة. وفي نهاية حياته أبريل ٢٠١٤، وقبل ذلك بثلاثة أشهر أصدر كتاب بعنوان "هل يحق تقسيم التاريخ إلى حقب" فيه مراجعة للتحقيب على الشكل الذي تناولنا بعض منه وباختصار[٣٦]، دعا جاك لوغوف إلى مراجعة التحقيب، لا إلى الشك فيه، فهو يدعو إلى فتح النقاش مرة أخرى، وإلى التنبه إلى بطء المرور من حقبة إلى أخرى. هذا لأن مهمة المؤرخ تقتضي الكشف عن التداخل الحاصل بين الحقب، ورصد الفظائع التي قد تخفي الاستمراريات، والتجرؤ على التعامل مع التاريخ في مدته الطويلة[٣٧]. وبالتالي فلوكوف كرس حياته العلمية لمناقشة قضية التحقيب ومراجعة الفكرة السائدة التي ترى في القرون الوسطى الأوربية حقبة تقع زمنيًا بين العصر القديم وعصر النهضة الأوربية[٣٨].

يذكر الأستاذ حبيدة، أن أن لوغوف الذي صدر له آخر كتاب قبل وفاته في يناير ٢٠١٤، بعنوان "هل يحتمل التاريخُ التحقيبَ"[٣٩] الصادر عن منشورات سُوي الفرنسية في ٢٠٩ صفحة من الحجم الصغير، الكتاب تكملة لكتاب سبق أن نشره هذا المؤرخ عام ٢٠٠٤ تحت عنوان "العصر الوسيط الطويل" الذي يقول فيه لوغوف: "هذا المبحث ليس أطروحة ولا تركيبا. هو حصيلة لبحث طويل، أي تفكُّر في التاريخ، وفي حقب التاريخ الغربي، رافقني منذ عام ١٩٥٠، منذ حصولي على التبريز الذي ترأس لجنته العلمية فيرناند بروديل، والذي مثل فيها التاريخ الوسيط موريس لومبار. أحملُ إذن هذا الكتاب منذ زمن طويل، إذ تغذى بأفكار اقتنعتُ بها، وعبَّرتُ عنها في مناسبات متعددة بطرق مختلفة"[٤٠].

خَاتِمَةٌ

وبناءً عليه، فقد تناولنا في هذا المقال البحثي منطلقات الكتابة التاريخية منذ النشأة في ألمانيا مروراً بالتطور الذي عرفته في فرنسا مع تأسيس المدرسة المنهجية سنة ١٨٧٦، مع التركيز على تناول أفكار الرواد المؤسسين، وصولاً إلى مدرسة الحوليات وإسهاماتها التاريخية، من جيل الآباء فجيل فيرناند بروديل وجيل جاك لوغوف. عموما، لقد أسفرت الإسطوغرافية في أوربا منذ القرن التاسع عشر، عن ابتكار منهج ابستمولوجي جديد. أنتقلت بالكتابة التاريخية بالتركيز الكلي على الوثيقة التاريخية، (البحث في التاريخ السياسي) إلى البحث في الأثربولوجية التاريخية، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وإعادة فتح النقاش في التحقيب التاريخي ومراجعته، ولا سيما العصر الوسيط باعتباره عصر ولادة أوربا وتطورها. ومع مرور الوقت، ظهرت لدى الجيل الأخير من مؤرخي مدرسة الحوليات، مثل فراسوا دوس، (٧٤عام)، نزعة تسعى لتجاوز مفاهيم مدرسة الحوليات والبحث عن تاريخ جديد يعكس تطلعات الجيل المعاصر الذي قد يُطلق عليه الجيل الرابع من مؤرخي الحوليات[٤١].

الإحالات المرجعية:

(١) محمد حبيدة، **كتابة التاريخ قراءات وتأويلات**، دار أبي رقراق، الطبعة الثانية، الرباط، ٢٠٢٢، ص.٨-٩.

(٢) وجيه كوثراني، **تاريخ التأريخ: اتجاهات – مدارس – مناهج**. الدوحة/بيروت، منشورات المركز العربي للدراسات والأبحاث ودراسة السياسات،٢٠١٣. ص.١٦٥.ف

(٣) مؤرخ ألماني ولد من أسرة لوثرية متدينة درس في جامعة لايبزيج، فيما بعد أصبح مدرسًا في إحدى ثانويات فرانكفورت، بدأ مسيرته العلمية مؤرخًا بمؤلف ذاع صيته عن "تاريخ الشعوب الرومانية والجرمانية" وعلى إثر هذا الكتاب نودي به أستاذًا للتاريخ في جامعة برلين عام ١٨٢٥، إلى أن تقاعد عام ١٨٧١، شارك في الحياة السياسية في ألمانيا فتولى تحرير "المجلة السياسية التاريخية"، عين عام ١٨٤١ مؤرخًا للدولة البروسية، فكتب مؤلفا ضخمًا عن التاريخ البروسي في تسعة مجلدات، أصدر كتابه الشهير " التاريخ الألماني في عصر الإصلاح الديني"، شرع في كتابة التاريخ الفرنسي والإنجليزي، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر بوصفهما جزءًا من التاريخ الأوربي، كتب تاريخ إسبانيا وبلاد الصرب وألقى سلسلة من المحاضرات عن التاريخ الحديث. في سن السادسة والثمانين من عمره كتب مؤلف "تاريخ العالم" ووصل بأحداثه حتى عام ١٤٥٠م، وكان من أعظم إنجازاته إصدار "السيرة الألمانية العامة" في ٥٦ مجلدًا. انظر: عبد الرحيم الوسعيدي، موجز الكتابة التاريخية من النهضة الأوربية إلى الحوليات الفرنسية؛ في التجديد المنهجي والابستمولوجي، **مجلة التنويري**، ١٤ مارس ٢٠٢٤.

(٤) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية: برلين، السوربون، استراسبورغ، من المنهج إلى التناهج**. الرباط: دار الأمان، ٢٠١٨.ص.٨.

(5) نفسه، ص.٣٤-٣٥.

(٦) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية**...م، ص.٣٥.

(٧) نفسه.

(8) نفسه.

(٩) وجيه كوثراني، **تاريخ التأريخ**...م،ص. ١٦٨.

(10) Langlois, Charles-Victor & Charles Seignobos, Introduction, aux études historiques. Paris: Edition Kimé, 1992. p.29.

(١١) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية**...م، ص،٣٥-٣٦.

(12) Langlois, Seignobos, op.cit. p.29.

(13) Ibid.

(14) Ibid.

(١٥) حمد حبيدة، **كتابة التاريخ قراءات وتأويلات**، م.س.ص.١١.

(١٦) نفسه.

(١٧) نفسه.

(١٨) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية**...م.س. ص. ٣٦-٤٠.

(١٩) نفسه،٣٦.

(٢٠) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية**، م،س،ص. ٣٦.

(٢١) نفسه.

(٢٢) ناصر الدين سعيدوني، الطريق إلى التجديد: مدرسة الحوليات الفرنسية من الانفتاح إلى التفتت (١)، **أسطور** (الدوحة)، العدد ١٤، (تموز/ يوليوز ٢٠٢١). ص ١٧-١٩.

(٢٣) ناصر الدين سعيدوني، الطريق إلى التجديد: مدرسة الحوليات الفرنسية من الانفتاح إلى التفتت (١)، مجلة **أسطور**، العدد ١٤، تموز/ يونيو ٢٠٢١، ص١٧-١٩.

(٢٤) محمد حناوي، الكتابة التاريخية ورهان التجديد المنهجي، **رباط الكتب**،٢٠٠٩.

(٢٥) جاك لوكوف، **التاريخ الجديد**، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،٢٠٠٧

(٢٦) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية**...م، س، ص. ٤٠.

(٢٧) محمد حبيدة، **كتابة التاريخ قراءات وتأويلات**...م.س، ص٨١.

(٢٨) ناصر الدين سعيدوني، مدرسة الحوليات الفرنسية من الانفتاح إلى التفتت (٢)، مجلة **أسطور**، العدد ١٥، كانون الثاني/ يناير٢٠٢٢. ص.٩.

(٢٩) ناصر الدين سعيدوني، مدرسة الحوليات الفرنسية من الانفتاح إلى التفتت (٢)، **أسطور**، م.س، ص.٢١-٢٣.

(٣٠) نفسه، ص.٢٣.

(٣١) نفسه، ص.٢٤.

(٣٢) ناصر الدين سعيدوني (٢) ،م، س، ص.٢٤-٢٥.

(٣٣) نفسه.

(٣٤) كلمة التقدم لم تظهر إلا في القرن الثامن عشر المرتبط مع "ميرابو" الذي يقول، التقدم هو السعي إلى حياة زاهرة.

(٣٥) محمد حبيد، **كتابة التاريخ قراءات وتأويلات**...م،س، ص. ٩٠.

(٣٦) نفسه، ص.٩٣.

(٣٧) نفسه، ص.٩١.

(٣٨) نفسه، ص.٨١.

(39) J. Le Goff, **Faut-il vraiment découper l'histoire en tranches ?**, Paris, Seuil, 2014,209 pages.

أورد الأستاذ محمد حبيدة، **كتابة التاريخ قراءات وتأويلات**، م.س.ص.٨١. ونشرها أيضًا في مجلة رباط الكتب الإلكترونية، نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٦.

(٤٠) نفسه.

(٤١) ناصر الدين سعيدوني (2) ، م.س، ص.٢٦.